نقد نظرية المعرفة عند إيمانويل كانط

critique de la théorie de connaissance chez Emmanuel Kant

جفال عبد الإله

جامعة أبو بكر بلقايد بتلمسان (الجزائر)، dabdelillah@yahoo.com

تاريخ الإرسال: 2022-01-21 **تاريخ القبول**: 2022-06-07 **تاريخ النشر**: 2022-06-15

ملخص: تعتبر الفلسفة النقدية التي أسس لها الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط من بين الفلسفات التي ساهمت وبشكل كبير في نقل الخطاب الفلسفي من مرحلة الحداثة إلى مرحلة المعاصرة، ذلك لأن وظيفة هذه الفلسفة كانت تتلخص في إعادة ترتيب البيت الفلسفي جراء الجدل القائم بين العقلانيين من جهة والتجريبيين من جهة أخرى؛ كل ذلك يجعل من هذه الفلسفة لا محالة موضوعا يستوجب تحديد القراءة وتحيينها وفق معطيات الخطاب الفلسفي المعاصر؛ لا تعتبر هذه الدراسة المهتمة بسؤال المعرفة عند كانط مجرد قراءة فلسفية للمشروع الكانطي المتمحور حول موضوع المعرفة وأدواتها ناهيك عن منهجها، بل إننا نريد ومن خلال هذه الدراسة أن نحدد فهمنا لمدونات إيمانويل كانط بخصوص هذا الموضوع على اعتبار أن نصوصها تتميز بالعمق الفلسفي والتعقيد، كما أنها تتطرق بالتحليل لأفكار علمية ساهمت في التأسيس للعقلانية المعاصرة؛ الهدف من هذا المقال يمكن تحديده في جزئيتين اثنتين، الأولى تتمثل في تحديد قراءتنا للنصوص الكانطية وفق معطيات العصر أما الثانية فتتمثل في إبراز دور أفكار هذا الفيلسوف النقدية في معالجة أهم المسائل الفلسفية على الإطلاق وهي مسألة مبادئ العقل والتفكير وطبيعة المعرفة.

الكلمات المفتاحية: نظرية المعرفة؛ العقل؛ كانط؛ النقد

Abstract:

Critical philosophy, founded by Immanuel Kant, contributed greatly to the transfer of philosophical discourse from the modern to the contemporary stage. Its function was to rearrange the philosophical thought resulting from the debate between rationalists and empiricists. This philosophy is a subject that requires a new and updated reading according to the data of the contemporary philosophical discourse. This study concerned with the question of knowledge according to

نقد نظرية المعرفة عند إيمانويل كانط

Kant is not only a philosophical reading of the Kantian project centered on the subject of knowledge, its tools and method, but we seek, through this study, to renew our understanding of Immanuel Kant's corpora on this issue, given that its texts are philosophically deep and complex. It also deals with analysis of scientific ideas that contributed to the establishment of contemporary scientific rationality. The goal of this article is determined in two parts: to renew our reading of Kantian texts according to the data of this era, and to highlight the role of Kant's critical ideas in addressing the most important philosophical issue which is the principles of reason, thinking and the nature of knowledge.
Keywords: epistemology; mind; Kant; criticism

المؤلف المرسل: جفال عبد الإله، **الإيميل**: dabdelillah@yahoo.com

1– مقدمة:

يمكننا تحديد قراءة النصوص الفلسفية النقدية المتعلقة بسؤال القيم التي قدمها الفيلسوف الألماني إيمانويل كانط (Emmanuel Kant 1724-1804) من خلال التأسيس لفهم جديد يأخذ بعين الاعتبار حياة هذا الفيلسوف العلمية؛ لقد شهدت طريقة تفكير إيمانويل كانط تطورا عبر ثلاث مراحل (ألن. وود؛ 2014، 21)؛ المرحلة الأولى هي المرحلة العلمية العقلية وقد تأثر فيها كانط بكل من ليبتنيز وكريستيان فولف وهو ما جعل منه عالما قبل أن يكون فيلسوفا، بمعنى أن نظرية ليبتنيز حول الموناد ات كان لها دور كبير في ميل كانط إلى فهم الطبيعة قبل توجهه إلى الموضوع الفلسفي بوجه عام والأكسيولوجي على وجه التحديد، كذلك ساهمت وضعية أستاذه المباشر كريستيان فولف في توجه كانط إلى دراسة وفهم الظواهر الطبيعية؛ أما الميزة العامة في هذه المرحلة فيمكن حصرها في المبدأ العام الذي لازم كل أفكار هذه الفيلسوف إذ كان يعتقد كانط أنه يمكننا التوصل لحقائق معرفية بواسطة العقل فقط؛ وقد تأكد ذلك لدى كانط من خلال نزعته العلمية من خلال اهتمامه بالرياضيات والفيزياء وعلم الفلك وهو ما تجسد في كتاباته الأولى كنظريته حول تكون الأجرام السماوية من خلال ردها إلى السديم الأول ورفض فرضية الأزلية وهو ما برهن عليه لابلاس فيما بعد (خضر. حيدر؛ 2017. 313)؛ أما المرحلة الثانية فهي

المرحلة الشكية والتي بدأت سنة 1765م إذ تحول كانط إلى مرحلة جديدة من حياته الفكرية خاصة عندما تأثر بدافيد هيوم، هذا الأخير جعله يشك في فرضية المعرفة العقلية المحضة التي ميزت مرحلته العلمية العقلية، وقد ترتب عن ذلك ميله إلى فرضية جديدة مفادها أن كل معرفة تبدأ تجريبيا أي أنها تولد حسية مع الاحتفاظ بطابعها العقلي؛ تأثر كانط أيضا في هذه المرحلة بالفيلسوف الانجليزي شافست بيري خاصة في مسألة الأخلاق لكنه سرعان ما رفض تصوراته المبنية على الذاتية، لكن أكثر الفلاسفة تأثيرا في فلسفة إيمانويل كانط في هذه المرحلة كان الفرنسي جون جاك روسو خاصة من خلال أفكاره التي رافقت الثورة الفرنسية.

تعتبر المرحلة الثالثة من حياة كانط الفكرية المرحلة الأهم كونها تعبر عن نضجه الفلسفي. ففي هذه المرحلة كشف كانط عن توجهاته النقدية وقد بدأت سنة 1775 م بالضبط عندما انتقل من خلالها إلى مرحلة جديدة في حياته الفكرية وهي المرحلة التي توجته كفيلسوف مبدع متجاوزا كلا من الفلسفة التجريبية والفلسفة العقلانية من خلال مثاليته المتعالية المجسدة في ثلاثيته النقدية الشهيرة حول المعرفة والأخلاق والفن (خضر. حيدر؛ 2017، 316).

يتمحور المشروع النقدي الذي قدمه كانط حول إشكالية رئيسة تتعلق بقدرة العقل على اعتبار أن هذا الأخير هو جوهر الإنسان الذي تتحدد وفقه جميع خاصياته على مستوى الفكر والسلوك إضافة إلى الذوق. وقد حصرنا فاعلية العقل في المعرفة والأخلاق والفن لأن إيمانويل كانط هو الذي قسم العقل إلى ثلاث ملكات وهي: ملكة المعرفة وملكة الإرادة ثم ملكة الشعور، على هذا الأساس تترتب عن هذه الإشكالية المحورية التي تتناولها الفلسفة الكانطية ثلاثة أسئلة أساسية، أولها سؤال المعرفة وثانيها سؤال الأخلاق أما ثالثها فهو سؤال الذوق الجمالي والفني؛ تلك الأسئلة سيجيب عنها إيمانويل كانط من خلال كتبه النقدية الشهيرة، فسؤال المعرفة سيكون موضوعا لكتاب نقد العقل المحض (critique of pure raison) أما سؤال الأخلاق فقد خصص له كانط كتابه الثاني وهو نقد العقل العملي (critique of pratique raison) في حين أن كتابه نقد ملكة الحكم (critique of judgment raison)

سيعنى بالإجابة عن السؤال الثالث المتعلق بالتجربة الفنية والجمالية؛ هكذا اكتمل المثلث النقدي الأكسيولوجي الذي قدمه كانط وهو الأمر الذي يستوجب التساؤل عن كيفية التطور التي تم بها، تساؤل يمكن صياغته على النحو الآتي: كيف تطور سؤال الأكسيولوجيا في فلسفة كانط النقدية؟ كيف رتب إيمانويل كانط أهدافه النقدية بين المعرفة والأخلاق والفن؟

2.المتن:

1.2 نقد العقل المحض وسؤال المعرفة:

أصدر إيمانويل كانط كتابه الموسوم بعنوان " نقد العقل المحض" سنة 1781م وتم استقباله من قبل النخبة الفلسفية آنذاك بكثير من التجاهل وذلك لأن الكتاب لم يحترم كثيرا من الشكليات المهمة في الإخراج وعلى رأسها اللغة، لذلك أجبر كانط على نشره مرة أخرى مع مراعاة كل نقائص الطبعة الأولى فكان له بذلك وقع كبير في أوساط المفكرين والحلقات الفلسفية الأكاديمية؛ وقد كان الهدف العام من وضع هذا الكتاب هو وقوف كانط على نظرية المعرفة بالتحليل والتقييم من خلال تحديد قدرات العقل في بلوغ المعرفة، إلا أن العقل في هذا الكتاب لا يقصد به تلك الملكات التي تمكننا من القيام بوظائف ذهنية كما كان يعتقد، بل إن المقصود بالعقل في فلسفة كانط عموما وفي كتاب نقد العقل المحض على وجه الخصوص هو الفعل الذي يقوم به العقل وهو عملية عقل الأشياء أو إن صح القول هو ما يمكن أن نصطلح عليه بآليات التفكير التي تمكننا من صناعة المعرفة، أما باستخدام كانط لمفهوم "المحض" فإن المقصود بالعقل سيتم حصره في الآليات التي تمكننا من صناعة المعرفة والتي حصلنا عليها قبل أي تجربة حسية، أي أن العقل الذي يقصده إيمانويل كانط ويتوجه إليه بالنقد في هذا الكتاب هو العقل السابق في وجوده لأي تجربة حسية كما نحت تصوره رونيه ديكارت، على هذا الأساس يمكننا اعتبار فكرة نقد العقل المحض التي تضمنها هذا الكتاب علما قائما بذاته موضوعه هو العقل المحض ومنهجه نقدي ترانسندنتالي

تطرق لكل الجزئيات المتعلقة بهذا الموضوع بشكل يمكننا من وضع أورغانون متكامل لهذا العقل (إيمانويل. كانط؛ 1988 ، 54).

بدأ إيمانويل كانط كتابه "نقد العقل المحض" بكلمة يوجهها إلى فرانسيس بيكون رائد المذهب التجريبي باعتبار الطرف الأساسي في الخطاب الحداثي الذي تمحور حول نظرية المعرفة، أما متن هذه الكلمة فقد كان موجها للقارئ من خلال فرانسيس بيكون وقد تضمن فكرتين أساسيتين؛ الأولى تمثلت في تنزيه كتاب نقد العقل المحض عن الرأي أو المذهبية أو حتى الهوى أو الميول الفكرية، الأمر الذي يجعل من مضمون هذا الكتاب تأسيسا صريحا لنظرية جديدة وموضوعية حول المعرفة؛ أما الفكرة الأساسية الثانية التي تضمنتها هذه الكلمة فهي رفع الطابع الإملائي لما ورد في هذا الكتاب أي أن كانط يوضح للقارئ أنه غير ملزم بما ورد في مؤلفه بل يدعوه إلى قراءة راشدة حتى لا تتحول نظريته إلى إملاء، معنى ذلك أن من يريد قراءة هذا الكتاب عليه أن يكون يقضا وأن يحتفظ لنفسه بحق الفهم الذي يخدم الصالح العام المعرفي والموضوعي، كذلك من أجل وضع حد لخطأ اعتبره كانط لا متناهي (إيمانويل. كانط؛ 1988، ص 23)

تتأسس نظرية المعرفة عند كانط على نقد الأطروحتين التجريبية والعقلانية خاصة في ما يتعلق بدور العقل في تحصيل المعرفة، فقد رأت التجريبية وعلى رأسها فرانسيس بيكون أن الحواس هي نوافذ العقل على العالم الخارجي وبدونها لا يمكن تحصيل المعرفة وسيبقى العقل صفحة بيضاء، في حين ترى العقلانية وعلى رأسها رونيه ديكارت أن المعرفة لا يمكن بلوغها إلا بواسطة العقل وحده، أما الحواس فمعطياتها خاطئة لا يمكن الوثوق بها ومن ثم لا يمكن أن نؤسس عليها معرفة تنشد الحقيقة؛ معنى ذلك أن كلا الطرفين بالغ في تعامله مع العقل حسب إيمانويل كانط سواء بالاعتماد على العقل وحده أو بوضعه في تبعية مطلقة للحواس؛ يرى كانط أن المعرفة هي عبارة عن نقطة تقاطع بين المعطى الحسي والمعطى العقلي معا، وقد عبر كانط عن هذا التصور بقول صريح مفاده أن كل معرفة تبدأ بالتجربة لكن تنشأ عنها (إيمانويل. كانط؛ 1988، 45)، معنى ذلك أن المعرفة تبدأ بمعطيات تجريبية تقدمها لنا الحواس ومن ثم يتكفل العقل بمعالجة هذه المعطيات لينتج لنا معرفة حول العالم ،ويتم ذلك من خلال الاعتماد على أدوات موجودة في العقل

تسمى المقولات وهي تصورات سابقة للتجربة هي حاصلة في العقل بالولادة أهمها مقولتي الزمان والمكان؛ ومن أجل فهم صحيح لفكرة المقولات يمكن تشتيتها بالقوالب الإدراكية التي تساعدنا على تنظيم الوجود في العقل وهي المسئولة وبشكل مباشر ومطلق عن إدراك الإنسان للعالم وتصوره للمعطى الحسي، وتتميز هذه المقولات القبلية بخاصيتين أساسيتين هما الشمولية والضرورة فحتى التجربة الحسية تستند عليها بل وحتى المعرفة العامية، أي أنها ثابتة تعمل دائما بالطريقة نفسها ومنه فإن نتائجها ستكون ثابتة (إيمانويل. كانط؛ دون سنة، ص 47)؛وتترتب عن قضية بالغة الأهمية في فلسفة كانط حول المعرفة مفادها أن ما هو موجود في العقل من معارف لا يعني أنه قد حصل تطابق للعقل مع الواقع كما كان يعتقد سلفا بل إن كانط قلب النظام بتصور جديد للمعرفة مفاده أن هذه الأخيرة هي عبارة عن إعادة إنشاء للعالم أو هي صناعة الوجود لأن هذا الأخير هو المجبر على الخضوع لمقولات العقل حتى ينتظم معرفيا وليس العكس؛ كل ما سبق يجعل من كانط شبيها بكوبرنيكوس الذي قلب تصور بطليموس حول مركزية الوجود، فبعد أن ساد الاعتقاد بأن الأرض هي مركز الوجود أصبحت الشمس هي التي تمثل هذا المركز في حين أن الأرض أمست متحركة حول هذا المركز، كذلك في نظرية المعرفة أضحى العقل هو المركز والعالم هو المتحرك حول هذا المركز بعد أن ساد الاعتقاد بأن العقل لا يبلغ المعرفة الصحيحة إلا إذا عكس صورة العالم الحقيقية أو إذا تطابق مع العالم.

يترتب أيضا عن أطروحة كانط الجديدة حول المعرفة قضية أخرى لا تقل أهمية عن القضية السالفة الذكر، فالعقل الذي يعيد إنشاء العالم لينتج معرفة حول العالم هو قادر على التعامل مع كل ما هو محسوس في متناول التجربة الحسية لكنه في نفس الوقت هو عاجز عن تخطي تلك الحدود أي أن كل معطى تعجز الحواس عن نقله للعقل حتى يخضعه للمقولات هو خارج عن نطاق المعرفة، فإدراك فكرة الجوهر مثلا مستحيلة ذلك لأن الجوهر يقع خارج النطاق الحسي ومن ثم فإن العقل لا يمكن إخضاعه لمقولاته الأمر الذي جعل جوهر الشيء يقع خارج حدود المعرفة بالنسبة لإيمانويل كانط؛ هنا يختلف كانط مع التجريبيين

حول الوجود والتجربة، فقد اعتقد هؤلاء وعلى رأسهم باركلي أن تجربتنا الحسية هي التي تعطي وجودا للعالم وكل ما لا يمكننا الإحساس به هو في الحقيقة غير موجود أصلا؛ رفض كانط هذا الطرح ورأى أن ما تلتقطه الحواس إنما هو صفات الشيء كاللون أو الشكل أو حتى الرائحة ولا بد لهذه الصفات من حامل أي أن هذه الصفات هي بمثابة صورة كان لابد من وجود ورقة بيضاء تحملها، بهذا الشكل يثبت كانط فكرة الجوهر ويضعها في نفس الوقت خارج حدود المعرفة أي أنه موجود لكنه لا يمكن أن يكون مدركا، وهذا هو السبب الرئيسي الذي جعل إيمانويل كانط يقسم الوجود إلى عالمي النومين (noumenon) والفينومين (phénomenon) الأول هو الوجود في ذاته الخارج عن حيز المكان والزمن أما الثاني فهو عالم الظواهر المتعين في المكان والزمن المتجسد ماديا في الطبيعة، الأول هو كل موضوع يستعصى إدراكه أو فهمه والثاني هو كل ما يمكن عقلنته وإخضاعه لقوالب العقل المعرفية كالزمن والمكان والسببية (Michèle crampe, 2004, p 85.)

يرى كانط أن بنية العقل تمكنه من التعامل مع عالم الفينومين فقط أما عالم النومين يقع خارج حدود العقل، وهذا ما يتسق تماما مع قوله أن المعرفة تبدأ حسيا أي تجريبيا، رغم ذلك لا ينفي كانط وجود عالم النومين بل بالعكس من ذلك هو يثبته باعتبار أن ظاهر الشيء لا بد له من حامل، هذا الأخير هو اللامرئي من الأشياء الذي لا يمكننا إدراكه وبالتالي هو واقع خارج حدود الإدراك لأنه خارج حدود التجربة؛ مثال ذلك أننا ندرك جميعا وجود الضوء كونه ظاهرة تتبدى للعيان لكننا لا ندرك الفوتونات الحاملة للقوة الكهرومغناطيسية فلا أحد يمكنه إدراك ماهية الفوتون (le photon)، على هذا الأساس تتميز المعرفة عند كانط بطابعها الواقعي كونها مرتبطة بعالم الظواهر وهي عندئذ موضوعية متفق عليها أي علمية تخضع لقوانين القياس الكمي.

يترتب عن كل ما سبق قضية بالغة الأهمية في فلسفة كانط حول المعرفة والتي مفادها أن معرفتنا بالأشياء أو الموضوعات هي التي تثبت وجودها، معنى ذلك أن كانط يكشف في هذه القضية عن نقطة التقاطع بين نظرية المعرفة والوجود أو بين الإبستيمولوجيا والأنطولوجيا، ذلك لأن الوجود هو الموضوع المدرك أو

الموضوع القابل للإدراك العقلي عن طريق المعطى التجريبي الحسي؛ فمسائل مثل الله والروح مثلا هي في نظر كانط واقعة خارج حدود العقل لأنها ليست في متناول حواسنا لذلك لا يجب أن ندعي المعرفة بشأنها، كل ذلك يمكن اعتباره نقدا للميتافيزيقا التي حاولت إقحام العقل في مجال لا يملك العقل أدوات للتعامل معه كونه يقع خارج نطاق معرفته؛ لا يعني ذلك أن إيمانويل كانط ينفي وجود الله أو الروح أو أي موجود في ذاته لأن النفي هو في حد ذاته إقرار بالمعرفة عن طريق السلب لذلك يجب أن ندرك جزئية رئيسية في فلسفة كانط وهي أنه لا ينفي وجود الله عندما يقول أنه يقع خارج حدود العقل المعرفية بل إنه يقر بعدم قدرتنا على معرفته كما يقر في نفس الوقت بعدم قدرتنا على نفيه، وهذا لا يعني بالضرورة أن كانط كان ملحدا رافضا للدين والألوهة ذلك لأنه رفض المعرفة التي يكون الله موضوعا لها لكنه أقر بوجود الله كحل أخلاقي يعطي لوجودنا معنى وهذا ما يجعله تنويرا بامتياز؛ يقول كانط أنه سيضع حدا للمعرفة ليفتح مجالا للإيمان وهذا رفضه نيتشه وجعله يعتبر كانط منافقا يدعي التنوير، فقد خصص كانط الباب الثالث من كتاب نقد العقل المحض للحديث عن إثباتات وجود الله عن طريق عرض أدلة العقل الاعتباري بطرقها الثلاث ونقدها ثم من خلال عرض امتناع الدليل الأنطولوجي، وأخيرا من خلال امتناع وجود الدليل الكوسمولوجي(إيمانويل. كانط؛ 1988، ص295،301).

تنقسم المعرفة عند كانط إلى قسمين اثنين، والمقصود بالمعرفة الممكنة المعرفة التي يكون عالم الفينومين موضوعا لها أما المعرفة غير الممكنة فهي معرفة الوجود في ذاته أو معرفة النومين، ويتأسس تقسيم كانط للمعرفة على طبيعة الحكم الذي يتحدد حسب علاقة الموضوع بالمحمول، معنى ذلك أن المعرفة عند كانط يعرف نوعها استنادا إلى الحكم الذي يصل إليه العقل من خلالها فالحكم في نظر كانط هو تعبير عن المعرفة كونه قضية تربط علاقة بين موضوع ومحمول باعتبارهما حدي المعرفة، فهناك معرفة قبلية وأخرى بعدية أي معرفة نحصل عليها قبل التجربة وأخرى نحصل عليها بعد التجربة؛على هذا الأساس قسم كانط الأحكام إلى نوعين هما الأحكام التحليلية والأحكام التركيبية(إيمانويل. كانط؛ 1988، ص49)،الأولى

تعبر عن المعرفة القبلية والثانية تعبر عن المعرفة البعدية، والفرق بينهما يكمن في علاقة محمول الحكم بموضوعه، ففي الأحكام التحليلية يكون المحمول جزءا من الموضوع كقولنا مثلا: الإنسان عاقل أو كقولنا : الحاضر ليس غائبا، وفي هذا النوع من الأحكام يرى كانط أننا لا نقدم معرفة جديدة بل كل ما تقدمه هذه الأحكام هو معرفة تكرارية بمنهج جديد، فتصورنا للإنسان يتضمن العقل وتصورنا للحضور يتضمن نفي الغياب ومنه فإن المعرفة القبلية المعبر عنها بالأحكام التحليلية هي في الحقيقة ليست معرفة بل هي تكرار لمعرفتنا عن طريق تحليل الموضوع؛ هذا النوع من الأحكام يتميز بجملة من الخصائص أبرزها:

أ- هي أحكام تستمد صحتها من تضمن الموضوع لمحموله قبلا،

ب- هي أحكام تكرارية لا تقدم معرفة جديدة مثلها كمثل القياس الحملي في المنطق الأرسطي،

ت- هي أحكام لا نحتاج فيها إلى معطى حسي تجريبي،

ث- هي أحكام برهانية لا تحتمل أي شك أي أنها يقينية ونفيها يفضي إلى التناقض،

نتنقل الآن إلى الأحكام التركيبية المعبرة عن المعرفة البعدية وهي أحكام تتضمن معرفة جديدة كونها تركب بين المحمول باعتبار أن الموضوع لم يكن متضمنا للمحمول كقولنا مثلا: الجسم يتحرك أو كقولنا: الجو ليس بارد ففي كل الأحوال لا يعتبر المحمول جزءا من الموضوع فهو يعبر إذا عن إضافة إلى الموضوع ومن ثمة كان الحكم تركيبيا وهو الأمر الذي لا يمكن الحصول عليه إلا من خلال التجربة الحسية والاستقراء؛ وتتميز الأحكام التركيبية هي الأخرى بجملة من الخصائص أبرزها:

أ- هي أحكام مشروطة بالمعطى الحسي التجريبي،

ب-هي أحكام تقدم معرفة جديدة،

ت-هي أحكام احتمالية قد تكون صادقة كما قد تكون كاذبة(إيمانويل. كانط؛ 1988، ص 48،49،50).

نستنتج من كل ما سبق أن كانط يضعنا أمام نوعين من الأحكام يعبر كل واحد منها على نوع من المعرفة، الأولى هي الأحكام التحليلية القبلية والتي لا تقدم نتائج جيدة ناهيك عن أنها تعبر عن العقل النظري

المنفصل عن الواقع، والثانية هي الأحكام التركيبية البعدية والتي تقدم معرفة عن الواقع وهي مشروطة بالتجربة الحسية والتي تكون غير يقينية بالضرورة؛ وفي كل الأحوال سنجد أنفسنا أمام مشكلة معرفية فإما أن تكون معرفتنا تكرارية لا تقدم الجديد إذا كنا ننشد اليقين وإما أن تكون ريبية لا تحتمل اليقين إذا كنا ننشد معرفة جديدة، وهذا هو الدافع الذي أجبر كانط على التفكير في مخرج لهذه المعضلة بالبحث عن حل ثالث أو نوع آخر للمعرفة والأحكام.

يرى كانط أن الحل يكمن في المعرفة التركيبية القبلية أي التي تقدم الجديد وهي في الوقت نفسه يقينية لا تحتمل الخطأ، والمقصود بهذه المعرفة عند كانط هو كل معرفة تقدم معرفة جديدة لا تقبل الشك أو هي كل معرفة تضيف للموضوع شيئا تبدأ بالتجربة الحسية دون أن تحمل ريبية الحواس؛ وخير مثال على ذلك القضايا الرياضية المعبر عنها مثلا بالحساب(إيمانويل. كانط؛ 1988، ص 50) كقولنا: 5+6=11 فالنتيجة 11 هي حاصل تركيب 5 و6 وهي في نفس الوقت غير متضمنة في الموضوع فلا هي متضمنة في 5 ولا هي متضمنة في 6، أما كانط فقد شرح المسألة في كتابه نقد العقل المحض بمثال رائع جدا يتمثل في المسلمة الرياضية التي مفادها أن الخط المستقيم هو أقرب مسافة بين نقطتين، فالخط المستقيم هو الموضوع وهو متعلق بالكيف أما أقصر مسافة بين نقطتين فهي المحمول وهي متعلقة بالكم وبما أنه لا يمكننا استخراج الكيف من الكم أو العكس فإن المحمول لم يكن متضمنا في الموضوع وبالتالي فهذه المسلمة تعبر عن حكم تركيبي لكن في نفس الوقت هي تعبير عن معرفة قبلية لأننا لم نعتمد على الحواس لتحصيلها إنما على العقل وحده أي العقل المحض القبلي السابق للتجربة الحسية، وهنا يكون كانط قد رفض تصورا شائعا مفاده أن القضايا الرياضية هي قضايا تحليلية قبلية واعتبر الرياضيات علما يمكن اعتباره نموذجا للتصور الكانطي للمعرفة التي تتجاوز التصورين العقلاني والتجريبي معا؛ هذه المعرفة يصطلح عليها كانط بالمعرفة الترانسندنتالية المتعالية على التجربة الحسية المؤسسة على مقولات العقل القبلية وهو الأمر

الذي أعتبر قطيعة راديكالية مع التصورات الفلسفية السابقة أي منعرجا فلسفيا سيغير من تاريخ الفلسفة برمتها (robert. Zimmer, 2012, P 242).

2.2 المعرفة الترانسندنتالية:

يقصد إيمانويل كانط بـ: " الترانسندنتالي" الشرط القبلي الذي يجعل من المعرفة ممكنة في حين أن المعرفة الترانسندنتالية هي كل معرفة يحاول من خلالها العقل الاهتمام بالأشياء أي بالموضوع الحسي عوض التركيز على التصورات القبلية لهذا الموضوع (سعيد. جلال الدين، 1994، 102)، معنى ذلك أن هناك فرق شاسع بين المنطق الترانسندنتالي والمعرفة الترانسندنتالية فإذا كان الأول يعبر عن علاقة العقل بذاته فالثاني يعبر عن علاقة العقل بموضوع المعرفة الذي سبق وأن اتفقنا أنه حسي (أمبيري)* ومنه يمكننا الآن الوقوف على النظام الترانسندنتالي (**le system transcendantal**) مثلما شرحه إيمانويل كانط؛ فالنظام الترانسندنتالي هو تجاوز للمنطق الأرسطي الذي يرى كانط أنه يغض الطرف عن موضوع المعرفة عندما يهتم بصور الاستدلالات العقلية وقد اصطلح عليه بالديالكتيك المنطقي، في حين يرى أن المنطق الترانسندنتالي الذي يتضمن أصل المعرفة وهو الأفكار القبلية ومن ثم يوظفها وفق موضوع المعرفة الأمبيري خارج قدرة الإدراك المحض، هنا يميز كانط بين الاستعمال المنطقي لأفكارنا القبلية والاستعمال الترانسندنتالي لهذه الأفكار(كانط. إيمانويل، 1988 ، 202) من كل ما سبق يمكننا أن نجزم الآن وفق المشروع الكانطي أن المعرفة الترانسندتالية هي كل معرفة تؤمن بوجود أفكار قبلية كالمكان والزمن والكم والكيف والسببية والحتمية وهي كلها موجودة في العقل قبل كل تجربة حسية بفضلها تتم المعرفة المرتكزة

---

*- أمبيري أو إمبريقي: هو مرتبط بكل معرفة تجريبية أو هو حاصل معطيات التجربة باعتبارها سبيلا لمعرفة الظواهر وعن الأمبيري يقول إدموند هوسرل الآتي:

" Nous sommes guidés par la distinction habituelle, entre les sciences descriptives, qui sur le fond de l'expérience, décrivent et classent l'existence factuelle et projettent des généralités inductives à l'intérieur de l'empirie intuitive en vue d'établir cette existence pour tout homme qui se tient dans la même empirie " (Edmond. Husserl, 1989, 196)

على المعطى الحسي باعتبار الحواس هي سبيلنا الوحيد إلى العالم الحسي، أي أن هذه المعرفة نقدية لسببين، الأول هو تجاوزها لفكرة العقل المحض المنغلق على نفسه وفق الكوجيتو الديكارتي عن طريق الانفتاح على الموضوع مثلما أراد كانط الذي أراد أن يقول ومن خلال المعرفة الترانسندتالية أني أفكر إذن الموضوع موجود؛ أما الثاني فيتمثل في تصحيحها للمعطى الحسي وفق المبادئ العقلية السالفة الذكر.

المقصود أيضا بالمعرفة الترانسندتالية هو كل معرفة علمية اتخذت مت الفينومين موضوعا لها وأدركت أن عالم النومان يقع خارج سلطة العقل الإدراكية هذا دون أن يحيلنا ذلك إلى إنكار وجودها، أي أن الفلسفة ستصبح وفق الفهم الكانطي محاولة للوصول بنتائج العلم إلى تكوين فكرة عن العالم في أذهاننا وبشكل أوضح مما هي عليه في الواقع وفق ما نجد في أنفسنا؛ ذلك ما دفع إميل بوترو في كتابه " فلسفة كانط" إلى القول: " والواقع أن الفلاسفة خلفاء كانط قد عادوا إلى وجهة النظر هذه ولم تكن هذه الفلسفة عديمة النفع، إنها قد أنشأت نقدا لم يعد مباحا بعد اليوم أن نتخلص منه، وإذا كان من الممكن مجاوزتها فذلك على شرط أن نعبرها من طرف إلى طرف" (بوترو. إميل، 1976، 284).

4. الخاتمة:

تتمتع فلسفة كانط النقدية عموما بالصرامة الفلسفية إذ يشعر القارئ لمدونات إيمانويل كانط بصعوبة تتبع مسار أفكاره لأن الأمر يتطلب إلماما إيتمولوجيا بالأفكار التي يتطرق إليها بالنقد، وكأن فلسفة كانط تشترط على الذي يحاول فهمها قراءة النصوص المعنية بالنقد أي أنها تشترط معرفة سابقة أو قبلية واسعة؛ في الوقت نفسه وإن تم ما سبق ذكره ونجح القارئ في مسعاه مع فلسفة كانط فلن يجد أدنى مشكلة في فهم الفلسفات اللاحقة أي فلسفة ما بعد الأنوار خاصة لو علمنا أن أشهرها يرتكز على التصور الكانطي، نقصد هنا على سبيل الذكر لا الحصر فلسفة هوسرل ونيتشه ومدرسة فرانكفورت وغيرها من الفلسفات التي تميزت بالجودة وهو الأمر الذي سيسمح لنا بالقول دون مواربة أن فلسفة كانط النقدية كانت سببا مباشرا في التأسيس لجودة الفلسفة التي ظهرت بداية القرن التاسع عشر.

خلصنا في متن ورقتنا البحثية هاته إلى جزئية مهمة مفادها أن قراءة أفكار إيمانويل كانط تحتاج بحق إلى تحيين لأن مكاشفة نصوصها ستحيلنا كل مرة إلى تكوين رؤية جديدة تتجاوز القراءات السابقة، نقول ذلك رغم أننا حاولنا الاشتغال في هذا المقال على نظرية المعرفة دون غيرها من المواضيع الأخرى التي نبغ فيها كانط وأبان على قدرة كبيرة في التأسيس لمنهجه النقدي، نقصد بالذكر موضوع الأخلاق والفن والدين وحتى الميتافيزيقا وحقوق الإنسان؛ هذا ما يجبرنا على القيام بنفس الأمر مع هذه المواضيع وهو تجديد قراءتنا وفهمنا للنصوص الفلسفية التي أنتجها إيمانويل كانط، بل يمكننا الحديث عن ذلك باعتباره مسارات جديدة يجب أن يسلكها البحث الفلسفي الذي ينشد مجارات أحد أقوى العقول الفلسفية والذي أثبت عبر التاريخ أن القراءة الفلسفية أمر صعب للغاية عندما يتميز النص الفلسفي بالجودة.

5. قائمة المراجع:

1- جلال الدين سعيد، معجم المصطلحات والشواهد الفلسفية، دار الجنوب للنشر، تونس، ط1، 2004.

2- **إيمانويل كانط**، نقد العقل المحض، تر: موسى وهبة، مركز الإنماء القومي، بيروت، دون ط، 1988.

3- ألن وود، كانط فيلسوف النقد، تر: بدوي عبد الفتاح، المركز القومي للترجمة، القاهرة، ط1، 2014.

4- بوترو إيميل، فلسفة كانط، تر: عثمان أمين، مكتبة الإسكندرية للنشر، الإسكندرية، ط1، 1976.

5- Edmund HUSSERL, La crise des sciences européennes et la phénoménologie transcendantale, Edition Gallimard, paris, 1989.

6- Michel crampe, Le gouvernement de la raison – Emmanuel Kant-, édition Bordas, paris, première édition, 2004.

7- Robert Zimmer, Le grand livre des philosophes, traduction : Olivier Mannoni, librairie Arthème Fayard, première Edition, 2012.

1- خضر حيدر،(2017)، إيمانويل كانط – الفيلسوف الشاهد على الحداثة الناقد لعيوبها-، مجلة الاستغراب، العدد 9، الصفحات 312 – 326.